الإسلام في الصين

من عهود الإمبراطوريات إلى الحقبة الجمهورية

عز الدين عناية
بغداد

تُعَدّ كلمتا ...الصين والإسلام من بين أكثر الكلمات تداولًا بين المبحرين في عالم الويب؛ لكن نادرا ما تُقرَن الكلمتان معاً طلبا لما يجمع بينهما. حيث قلّةٌ تعلَم أن الصين تضمّ ما يربو على ثلاثين ألف مسجد فوق أراضيها، وأن مسلمي هذا البلد – رغم تواضع عددهم نحو ثلاثين مليونا، بما يعادل 2 بالمئة من مجموع السكان العام- يتوزعون على مختلف أنحاء البلد، ولاسيما في أقاليم الشمال الغربي (كسينجانغ ونينغسيا وغانسو وكينغاي)، وفي يونّان، وفي هينان، وربّما بشكل أقلّ في شانكسي، وهيبايّ، وشاندونغ. حيث يمثلون عنصرا معتبرا في النسيج الاجتماعي، بما أغنوا به التراث القديم وما يثرون به الثقافة الحديثة. وعلى خلاف الدينين الإبراهيميين الآخرين (اليهودية والمسيحية) ينعمُ الإسلام بوضعٍ إثنيٍ مميَّز، وذلك على إثر تقسيمِ المجتمع الصيني إلى 56 إثنية (مينزو) مع السنوات الأولى لجمهورية الصين الشعبية. وبالتالي ينعم المسلمون بانتماء عرقي غير ديني –يتوزّع على أكثر من عشرين إثنية– بما يضفي تنوعا هائلا عليهم.

الكتاب الحالي ...الإسلام في الصين.. من البدايات إلى جمهورية الصين الشعبية، الذي نقدّمه للقارئ متفرّدٌ من حيث موضوعه. حيث تتناول فيه الباحثة الإيطالية فرانشيسكا روزاتي موضوعا على صلة بالحضارتين الإسلامية والصينية. تسعى فيه إلى تقديم خلاصة شاملة حول علاقة الدولة الصينية بموضوعي الإسلام والمسلمين، وهو مبحثٌ لا تنحصر حدوده بإقليم كسينجانغ، كما يسود التناول عادة، بل يغطّي كافة الشرائح والفئات المسلمة على التراب الصيني. فالكتاب يتتبّع مراحل انتشار الإسلام من أسرة تانغ (618–960م) إلى حدود أوضاع المسلمين في الراهن. مبرزة الباحثة كيفية انتشار الإسلام في الصين بموجب التجاور، وما لعبه هذا الدين من دور ضمن السياق الثقافي– الاجتماعي الصيني، دون أن يفرز ردود فعل عنيفة، أو يمثّل تهديدا لنسق الوئام الاجتماعي داخل الفضاء الإمبراطوري السالف أو داخل النسيج الاجتماعي المرتبط بالصين الحديثة؛ بل مثّل الإسلام عنصرا فاعلا في التقارب مع الصين على أصعدة اقتصادية وتجارية واجتماعية، وقد شهد ذلك التواصل أوجه إبان نشاط طريق الحرير، واستمر وإن بنسق بطيء بعد اندثار ذلك الطريق.

تنتمي الباحثة فرانشيسكا روزاتي إلى جيل الباحثين الإيطاليين الجدد، وهي خرّيجة أكبر جامعات أوروبا، جامعة روما لاسابينسا، التي يرتادها 000.120 طالب، تخصصت في آثار الصين الإسلامية وفي فئاتها الاجتماعية التي تدين بدين الإسلام. كتابها الحالي هو خلاصة عشر سنوات من البحث والمتابعة الميدانية، ما أضفى على مؤلفها طابعا حيًا مكثّفا، بعيدا عن الأبحاث الجامدة التي تقتصر على التنقيب في المؤلفات دون متابعة المعيش. في المحور الأول من الكتاب، وهو بعنوان ...من الهامش إلى المركز، تتناول الباحثة تاريخ الإسلام في الصين من أسرة تانغ الإمبراطورية (619–960م) إلى أواسط حقبة كينغ (القرن الثامن عشر). وهي فترة حبلى بالتحولات، ومهمة كذلك لفهم التطورات التي ألمّت بالإسلام وتحديدا مع أسرة كينغ (1644–1911م) وما تلاها مع حقبة الجمهورية، التي حقّق المسلمون، المعروفون في الصين بهوي (hui)، أثناءها شكلاً من الاندماج ضمن الأمة الصينية الناشئة، وذلك بالتوازي مع شعور بكونهم جماعة متميزة، الأمر الذي دعا بعضهم إلى اعتبارهم جماعة دينية (هويجاياو)، وراهم آخرون جماعة عرقية (هويزو) لا غير.

دين الحق

ولو عدنا إلى بدايات الإسلام في الصين نلحظ استعمال لفظة ...كينغزينغجياو القديمة كمسمّى لدين الإسلام ومعناها (دين الحق والصفاء). وفي الواقع ما كانت تلك التسمية خاصة بالإسلام، بل انسحبت في البدء على اليهودية أيضا، حيث نستشفّ ذلك من نص نقيشة موجودة في بيعة يهودية في كايفينغ تعود إلى العام 1489م. وأما اللفظ المستعمل في اللغة الصينية الحديثة فهو ...يسيلانجياو أي (دين الإسلام). هذا وتعود الاتصالات المبكرة بالصين إلى الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، فقد كان أول سفراء الإسلام إلى ...إمبراطورية التفويض السماوي. حلّ بشنغان (كسيان الحالية) سنة 628م نزولا تحت رغبة الإمبراطور تايزونغ، وتلبية لدعوة لتأويل حلم رآه في المنام بشأن رجل حكيم وصادق (النبي محمد عليه الصلاة والسلام) هلّ من المغرب، أي من جزيرة العرب. وقد وردت القصة في ...هويهوي يووانلاي ضمن أدبيات الصين الكلاسيكية. ولا زال إلى اليوم في كانتون معلَمٌ يُنسب إلى الصحابي المذكور، حيث مسجد هوايشينغ الذي تُعدّ صومعته من أقدم المعالم العمرانية الإسلامية في الصين، وقد تجلى فيها تمازج الطراز الإسلامي بطابع العمران الكنفشيوسي الطاوي.

من جانب آخر تورد ...حوليات تانغ حديثًا عن أولى السفارات الإسلامية التي أرسلها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة 713م، والتي أبى السفير المسلم أثناءها السجود التقليدي ...كوتو للإمبراطور زوان زونغ. حيث بقيت العلاقات الصينية الإسلامية المبكرة مستتبّة إلى حدود العام 751م، زمن تعرض قوات القائد الصيني كاو كسيانزي لهزيمة نكراء في معركة نهر طلس على يد القائد المسلم زياد بن صالح. وقد شكّل ذلك الحدث إنهاء لهيمنة الصين وبدءا لاختراق النفوذ الإسلامي آسيا الوسطى، والحادثة شهيرة في التاريخ بأسْر كوكبة من صنّاع الورق الصينيين ممن استفاد المسلمون من خبراتهم الحرفية.

في المحور الثاني من الكتاب، وهو بعنوان ...ثوار وانقسامات، جرى استعراض التحركات الإسلامية، إبان القرن التاسع عشر، مع تتبع مختلف تداعياتها وآثارها، التي تكشف عما دبّ من تباينات دينية وثقافية بين مسلمي الصين. فقد بلغ الحسّ بالامتعاض في أوساط المسلمين المقيمين في الشمال الغربي تحديدا، أي في إقليم كسينجانغ، وكذلك في إقليم يونّان جنوبا، أن أسّس دو وينكسو سلطنة دالي عقب انتفاضة بانتاي (1856–1873) وَآلتي خلّفت ردة فعل قوية سبّبت مذبحة ضدّ مسلمي الصين.والبيّن أن المنطقة لم تخلُ من التوتر، منذ القرون الوسطى، حيث يروى المؤرخ منهاج السراج الجوزجاني في ...طبقات ناصري (1260) أن بعض الرهبان البوذيين أوغروا صدر كشلو خان (غوشلوغ) وأوحوا له بإحصاء المسلمين بدل قتلهم. وحين همّ بهم طاله عذاب من حيث لا يحتسب، انقضّ عليه كلبه الرابض قرب عرشه فطرحه أرضًا ونهش ذكره وخصيتيه حتى أرداه قتيلا. هذه الرواية تكشف عمق التوتر الحاصل بين المسلمين والبوذيين في بعض الفترات. هذا وقد عمل الإنجليز في مطلع العصور الحديثة على استغلال عوامل التمايز في المنطقة. فمنذ أن تبيّن أن إقليم كسينجانغ يحوي ثروات مهمة كالشاي والقطن، بدأ تواصل الإنجليز مع كاسغاريا، ولم تات سنة 1873 حتى أُبرمت معاهدة مقابل حماية الإقليم من تدخل الروس (ص: 112). هذا وقد جعلت يونّان، إحدى ثغور الإمبراطورية المهمة على طريق الحرير، أباطرة الصين يصرون على ضمها إلى دائرة نفوذهم السياسي عنوة، ما أبقى المنطقة عرضة للقلاقل، أبرزها مجزرة 19 مايو 1856 التي ذهب فيها ألوف المسلمين ضحايا. حالة الاضطراب تلك لازمت المسلمين حتى مطلع القرن العشرين، حين شكّل سون يات–سين، مؤسس الصين الحديثة، حركة تونغمينغوي (التحالف الثوري) المناهض لنظام الحكم وبقصد قلب أسرة كينغ، حيث انضم إلى صفّه كثير من المسلمين. ولا يمكن الحديث عن خروج من حالة الأزمة سوى عشية الحرب الصينية اليابانية (1937–1945) التي أعقبها اعتراف إثني بالمسلمين، حيث دعا باي غونسغي أحد جنرالات الجيش القومي لجمهورية الصين وأحد أمراء الحرب في إقليم غوانغكسي الأئمة الأربعة الكبار وأعيان المسلمين إلى ووشانغ لإرساء تحالف استراتيجي، بقي ذلك نافذا وفاعلا إلى فترة طويلة (ص: 163). والواقع أن ثمة إقرارا في العقل السياسي الصيني أن تعاليم القرآن تشكّل دعامة للتوجه الاشتراكي، وهو ما انعكس في النظر للمسلمين بأنهم حملة تراث عريق بوسعه أن يكون سندا وعونا لترسيخ قوة اقتصادية سياسية تتطلع إليها الصين في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، إلا أن ذلك لم يحُلْ دون حدوث إجحاف، ما كان محصورا بدين الإسلام في الواقع، بل جاء جراء سياسة عامة سلكتها الدولة.

تبرز الباحثة فرانشيسكا روزاتي أن جدلا شغل ساسة الصين الحديثة ومثقفيها، إبان مطلع العصر الجمهوري حول طروحات الهوية والأمّة والعرق. وقد شمل من ضمن ما شمل المسلمين، سواء بوصفهم جماعة دينية تنتمي إلى أمة عابرة للحدود، أو بوصفهم ...إثنية (مينزو) ضمن أمة الصين الناشئة. وهي تقريبا العناصر التي عالجها المحور الثالث من الكتاب المعنون بأصوات القومية الإسلامية، أي العناصر التي استلهمت الرؤى السياسية لباني الوطن سون يات–سان، وكذلك نظريات الحزب الشيوعي الصيني ووجدت سندا في الدعاية الإمبريالية اليابانية، بشأن الدور الذي يمكن أن يلعبه مسلمو الصين داخل الدولة الحديثة. كما يتابع المحور الثالث حديثَه عن الدور الحدودي اللافت للمسلمين، ما جعلهم عرضة للحملات الغربية التي رأت فيهم عنصرا قابلا للإغراء بفعل كونهم من شعوب الأطراف وبوصفهم أصحاب تراث كتابي. في المحور الرابع والأخير المعنون بالإسلام والقومية والهوية الإثنية في جمهورية الصين الشعبية وهو محور يغطي الخمسين سنة الأخيرة من تاريخ الصين، وقد شهد الإسلام أثناءها تحولات كبرى. تتناول الباحثة التقسيمات العرقية في الصين، التي شمل الاعتراف فيها المسلمين بوصفهم دعامة من دعامات الصين الحديثة. وقد بُنيت تلك التقسيمات على أساس قواعد أربعة (اللغة والإقليم والاقتصاد والمخزون الثقافي) أرساها ستالين في كتاب ...الماركسية والمسالة القومية (1913). ركّز هذا المحور على أوضاع المسلمين في تلك الفترة وما خلّفته الأوضاع من أثر سلبي لا سيما إبان عشرية الثورة الثقافية (1966–1976)، وما أعقب ذلك من انتعاش إسلامي مع فترة رئاسة دانغ كسياوبينغ وإلى غاية الأوضاع الراهنة مع كسي جينبينغ التي باتت تخضع لتقلبات السياسة الدولية.

توزيع مكونات

لقد جرى توزيع مكونات المجتمع الصيني إلى 54 إثنية معتمدة من قبل الدولة، ألحقت بها إثنية إضافية سنة 1979، إضافة إلى مكوّن إثني غالب يضمّ السواد الأعظم من الصينيين يُعرف بالهان. وعلاوة على هذا التقسيم تستند الدولة في وجودها إلى مرجع خلقي كنفشيوسي اشتراكي، تمثله الأغلبية المشار إليها، لتبقى سائر المكونات الثقافية والعرقية الأخرى موالية ومراعية له. ولا زال هذا التقسيم ...الإثني حاضرا على بطاقة الهوية الصينية. وفي خضم ذلك التنوع تدين عشرٌ من تلك الإثنيات بدين الإسلام: التتار (3556 نفراً)، الأوزبيك (569.10)، البونان (074.20)، الطاجيك (069.51)، السالار (607.130)، الكيرغيز (708.186)، الدونغسيانغ (500.621)، الكازاكي (588.462.1)، الويغور (346.069.10)، الهويزو (087.586.10). وفي الصين أقلية ضئيلة فحسب من ...المسلمين المهتدين (كسين مسيليم) ممن لا ينطبق عليها التقسيم الإثني السائد. هذا وقد مرّت علاقة الجموع المسلمة بأغلبية الهان وبجهاز الدولة العام بتحولات، من ...ضيوف أجانب إلى ...صينيين مسلمين. وقد شهدت العلاقة تمتّنا مع نفوذ الحزب الشيوعي الصيني وذلك بفضل النشاط الحثيث للجمعية الإسلامية الصينية التي تأسست في بيكين سنة 1953. وهي جمعية نشيطة تتولى الإشراف على المؤسسات الإسلامية (جينغكسويان)، وتشرف على تكوين الأئمة، وعلى إقرار النصوص التعليمية التي تتناغم مع دعاية الحزب الشيوعي.

منفى اختياري

ما كانت علاقة مسلمي الصين بالنظام الشيوعي هيّنة، كما تبرز الباحثة فرانشيسكا روزاتي، وهو ما جعل بعض الرموز المسلمين يختارون المنفى الاضطراري في تايوان. وهو حال جملة من الشخصيات الشهيرة التي تركت الصين الحمراء والتحقت بخصيمتها. نجد باي كونغسكي، أحد جنرالات الجيش الثوري القومي، وكذلك ما بوفانغ، وما بوكينغ، وقد انضم جميعهم إلى برلمان تايوان. واليوم يبلغ عدد مسلمي تايوان نحو 000.60 على عدد سكان يناهز 23 مليونا.

وعلى ما تورد الباحثة روزاتي، عارض ماو بشدة مطلع خمسينيات القرن الماضي، شوفينية الهان تجاه الأقليات. وفي نطاق التعاطي مع جماعة ...هوي المسلمة في بيكين، على سبيل المثال، افتتحت الحكومة مدارس بقصد النهوض بالشرائح الفقيرة، كما تم تأميم مطاعم كينغزهان (الحلال)، وجرى ترميم جامع شارع بوي في بيكين إضافة إلى البنايات المجاورة، بأموال عمومية، مع مراعاة ألا تعلو تلك البنايات على الجامع. لكن منذ أن هلّت فترة الستينيات تحول كل شيء وباتت سياسة النظام تهدف إلى ...إلغاء أنظمة الاستغلال الإقطاعي المتمثلة في الدين، وتطلّع الحزب منذ العام 1965 إلى إلغاء أشكال التدين، وقد انجرّ عن ذلك ترحيل العديد من الأئمة إلى المحتشدات بقصد إعادة تأهيلهم (ص: 217). باتت حالة الإمام شان كالي (1924–1970) إحدى العلامات البارزة في هذا السياق المتعسف، حيث قضى الرجل شهيدا بعد معاناة طويلة.

اتساءل باستمرار عن محدودية مناهج التدريس في الجامعات العربية وقصورها عن الإلمام بقضايا العالم الإسلامي. إن ثمة انغلاق رؤيوي وانحصار منهجي، والحال أن تلك المؤسسات الجامعية هي أولى بتناول قضايا المسلمين لما يربطها بهم من وشائج حضارية ودينية. كتاب الإيطالية فرانشيسكا روزاتي الذي آثرنا عرضه هو من إنتاج باحثة غربية في مجال الدراسات الشرقية. والمعرفة في هذه المؤسسات التي تُعنى بالشرق عملية، ولا تنزع إلى التجريد المشط أو الاغتراب المخل، بل تساير متطلبات الواقع. فأن تصدّر باحثة إيطالية كتابها بحديث نبوي، وإن ضعّفه البعض أو عدّه موضوعا، ...اطلبوا العالم ولو في الصين، فيه إيحاء للبون الشاسع الذي يفصل هواجس الدارس المسلم السالف عن نظيره الحديث.

الكتاب: الإسلام في الصين.. من البدايات إلى جمهورية الصين الشعبية.
الكاتبة: فرانشيسكا روزاتي.
الناشر: منشورات لازينو دورو (روما) باللغة الإيطالية.
سنة النشر: 2017.

بحوث

التربية والنشأة عاملان مهمان لدى القضاة

الجينات الوراثية قد تجعلك مجرماً

لندن- كولن باراس

بعد 11 ساعة من المداولات، وصل المحلفون إلى قرار: قتل خطأ وليست جريمة قتل متعمد.آخرون في قاعة المحكمة أخذتهم الدهشة. ممثل النيابة المحامي درو روبنسون قال لاحقاً في مقابلة مع راديو "أن بي آر" الأمريكي: "لقد كنت مذهولاً. لم أعرف كيف أرد على ذلك".بدا الأمر وكأنها قضية أغلقت بسرعة بمجرد فتحها.يتعلق الأمر بخلاف شهد إطلاق برادلي والدروب النار على صديق زوجته ثماني مرات، قبل أن يهاجم زوجته بساطور.لكن زوجته نجت بينما لم ينج صديقها. وقد اعترف والدروب بمسؤوليته عن الجريمتين، ووجهت له النيابة في ولاية تينيسي الأمريكية تهمة القتل ومحاولة القتل من الدرجة الأولى. وكان من المرجح أن يصدر بحقه حكم الإعدام حال الإدانة.لكن فريق الدفاع عنه قرر أن يطلب مساعدة علمية. فقد تبين أن والدروب لديه متغير غير عادي لجين أوكسيديز المونوامين A، والذي يطلق عليه في بعض وسائل الإعلام "جين المحارب" لأنه مرتبط بسلوك غير اجتماعي بما في ذلك السلوك المتهور.وشهد طبيب شرعي أن بنية والدروب الجينية، علاوة على الإساءة التي تعرض لها وهو طفل، تركته فريسة لخطر السلوك العنيف.بالنسبة للكثير من المراقبين الخارجيين، بدا أن هذا الدليل لعب دوراً حاسماً في قضية والدروب. هذا المفهوم تشكل بعد أن قال بعض أعضاء فريق المحلفين فيما بعد أن علم الوراثة أثر على قرارهم باعتبار والدروب مذنباً بالقتل غير المتعمد بدلاً من القتل العمد.

وقال أحد المحلفين لراديو "أن بي آر": "الجين السيء هو جين سيء". بيد أن الصورة الكاملة ربما تكون أكثر تعقيداً.

وتعد قضية والدروب واحدة من عدة قضايا شهيرة كان فيها علم الوراثة أو علم الأعصاب (من خلال المسح الدماغي مثلاً) دليلاً بدا أنه مؤثر في قاعة المحكمة. وقد أعرب الباحثون عن قلقهم من هذا التوجه، خصوصاً أن العلم المتعلق بهذا الموضوع ما زال جديداً نسبياً وغير مجرب، قائلين إن هذا الدليل عرضة لإساءة استخدامه في نظام القضاء الجنائي. لكن عدداً من الدراسات تقول إن الواقع أكثر دقة.ما الذي نعرفه عن كيفية تقييم القضاة والمحلفين للدليل العلمي كعلم الوراثة في المحكمة؟ وهل هو حقاً مؤثر بالقدر الذي يعتقده البعض؟بشكل عام، من الصعب معرفة ما الذي يؤثر على حكم جنائي معين. الذي يحدث في المحكمة يبقى في المحكمة. والسجلات المنشورة للمداولات والإجراءات غالباً ليست كاملة. حتى القضايا التي تكتب بالتفصيل يستبعد أن تكشف عن تأثير أي دليل منفرد بما في ذلك التشخيص الجيني أو العصبي على القاضي أو المحلفين."هذه القضايا في غاية التعقيد. فهناك الكثير من العوامل التي تؤثر في مجرياتها وفي قرار القاضي والمحلفين"، كما تقول ديبرا دينو، أستاذة القانون في جامعة فوردهام بمدينة نيويورك.

وتضيف: "علم الأعصاب واحد من بين 50 عاملاً محتملا قدمت للمحلفين نيابة عن المتهم".ويبدو أن الدليل الوراثي قد صنع فرقاً في قضية والدروب. لكن حتى هنا، أفصحت مقابلات أجرتها شبكة "أن بي آر" الإذاعية مع المحلفين عن أن هناك ما هو أكثر من مجرد هذا الدليل.فإحدى المحلفات قالت إنها كانت متأكدة من أن الجينات كانت عاملاً في قضية القتل غير العمد، لكنها أضافت أن تربية ونشأة والدروب أخذت بعين الاعتبار في قرار المحلفين.ولذلك من الصعب القول ما هو الدور الذي لعبه الدليل الوراثي في القضية. الأدلة الوراثية والعصبية تبرز عادةً مصحوبة بعوامل أخرى، كالإساءة التي تعرض لها المتهم في صغره، أو تاريخ مشاكل العائلة الاجتماعية.لذا، من المستحيل معرفة ما إذا كان هذا العامل وحده هو الحاسم أثناء المداولات.وتقول دينو: "لا نعرف حقيقة كيف يتخذ الناس قراراتهم". وتضيف أنه حتى هيئة المحلفين نفسها ربما لا تعرف.ورغم صعوبة دراسة تأثير الأدلة الوراثية والعصبية على مجريات القضية بقاعات المحاكم، ينتهج بعض الباحثين طريقة مختلفة في محاولة فهم الموضوع.

قضايا جنائية

فقد بدأوا في أخذ قضايا جنائية إلى خارج قاعات المحاكم، وتحديدا إلى المختبرات.وقد طلب نيكولاس سكوريتش من جامعة كاليفورنيا، وإرفين وبول أبلباوم من جامعة كولومبيا، من مواطنين أمريكيين أن يمثلوا دور محلفين افتراضيين. وكل "محلف" منهم عليه أن يقرر الحكم الذي يراه لجريمة الاعتداء بسلاح قاتل.واختار كل من سكوريتش وأبلباوم عدة متغيرات قدمت للمحلفين الافتراضيين مثل: هل كان المتهم حدثاً أم بالغاً، وحدة وقسوة الهجوم، وتفسير أو شرح محامي الدفاع للاعتداء، وما إذا كان المتهم، على سبيل المثال، لديه نشأة وراثية يعتقد أنها حفزته وهيأته للسلوك المتهور.واقترح المحلفون أحكاماً مخففة بالسجن إذا كان المتهم حدثاً، أو إذا كان الهجوم أقل قسوة. لكن التفسيرات الوراثية الجينية لسلوك المتهم لم تؤثر على طول مدة السجن التي اقترحها المحلفون.وربما لا تتأثر قاعات المحاكم الحقيقية بأدلة مرتبطة بالعلوم العصبية. وقد درس بول كاتلي وليسا كلايدون في الجامعة البريطانية المفتوحة 84 استئنافاً ضد إدانات صدرت عن محاكم في إنجلترا وويلز واحتوت على أدلة عصبية. وخلص الباحثان إلى أن 22 فقط من هذه الإستئنافات كانت ناجحة، على ما يبدو بسبب الأدلة العصبية. بينما لم يكن أكثر من ضعف هذه الاستئنافات (59) ناجحاً حتى مع وجود أدلة تسند إلى العلوم العصبية.هذه النتائج ليست مدهشة بالنسبة لدينو. فقد درست المئات من قضايا المحاكم الأمريكية التي قدمت فيها أدلة من هذه النوعية، وتقول: "لم أتمكن من الاستنتاج، حتى بعد 800 قضية، بأن الدليل المستند إلى العلوم العصبية قد صنع فرقاً".ويمكننا فقط التكهن بسبب ذلك. ففي العام الماضي، قال سكوريتش وأبلباوم إن تعقيدات الأدلة العلمية ربما تبدو غير مفهومة للشخص العادي، مما يجعله ببساطة يهمل هذا النوع من الأدلة عندما يكون عضوا في مجموعة المحلفين.لكن جيمز تابيري، أستاذ الفلسفة في جامعة يوتا بمدينة سولت ليك الأمريكية، لديه تفسير مختلف. فهو يعتقد أن غالبية الناس يجدون صعوبة في تصديق الأدلة العلمية. على سبيل المثال، ربما يبدو ببساطة من الصعب التصديق بأن سلوكنا يمكن شرحه وتفسيره بشيء مثل الجينات الخاصة بنا.ويوجد بديل لكل هذا. فمن الممكن أن الدليل الوراثي يؤثر حقاً على الحكم، لكنه ربما يأخذ القرار إلى اتجاهات معاكسة، ملغياً نفسه، ومبطلاً أي تأثير له على القرار.وهنا تكمن المشكلة. فإذا ما قيل لقاض أو محلف أن تفسيراً يستند إلى العلوم العصبية أو الوراثية له دور جزئي في سلوك المتهم، فربما يقرر أن حكماً مخففاً هو أمر مبرر لأن المتهم واقع تحت رحمة بنيته البيولوجية.لكن القاضي أو المحلف ربما يقرر أيضاً أن حكماً أكثر قسوة مطلوب للإبقاء على المتهم بعيداً عن الاحتكاك بالمجتمع، طالما أن تركيبته البيولوجية ستجعله يرتكب الجريمة مرة أخرى. ويعتقد تابيري أن هذا التأثير التحييدي ربما يحدث لبعض الوقت. لكنه يقول إن هناك أوضاعاً يمكن أن يتغير فيها التوازن بين العاملين، بمعنى أن الدليل العلمي قد يؤذي عملياً المتهم.وفي عام 2012، نشر تابيري وزملاؤه دراسة مشابهة لدراسة سكوريتش وأبلباوم. كانت نقطة البداية سيناريو افتراضي يشخص فيه رجل مصاب بمرض عقلي ويدان بارتكاب اعتداءات عدة.ومن ثم طلب فريق تابيري من 181 قاض أمريكي أن يقرروا حكماً مناسباً على الرجل المدان. وخلال عملهم المهني كقضاة، تعاملوا مع الكثير من القضايا الحقيقية المتعلقة باعتداءات شديدة. ومن المعلومات التي زودوا بها الباحثين عن هذه القضايا، يبدو أنهم أصدروا على المدانين بهذه القضايا أحكاماً بلغت تسع سنوات في المتوسط. لكنهم أعطوا المتهم المريض عقلياً حكماً أطول بالسجن يصل إلى حوالي 14 عاماً.هذا الرقم انخفض إلى حوالي 13 عاماً عند مجموعة فرعية من القضاة الذين زودوا بمعلومات تشرح المرض العقلي، وتربط بين الحالة وبين عمل دماغي غير معتاد مرتبط بجين معين.

وقت محدد

والخلاصة، كما يعتقد تابيري، أنه في ظروف معينة، خاصة عندما يرجح قضاء المدان وقتاً محدوداً في السجن ومن ثم يعود لدخول المجتمع مرة ثانية، يمكن للأدلة العصبية والوراثية أن تصنع فرقاً كبيراً في المحكمة. حيث يمكن أن تقود إلى أحكام أكثر قسوة.وتتصادم هذه الفكرة بشكل واضح مع استنتاجات دينو بأن الأدلة الوراثية والعصبية تصنع فرقاً حاسماً في المحكمة. ففي بحث نشر عام 2013 قالت أن ذلك يرجع إلى أن هناك عيوباً في الدراسة التي أجراها تابيري وزملاؤه. وعلى سبيل المثال، تشير دينو إلى أن تابيري وزملاؤه اختاروا مرضاً عقلياً، وهم أنفسهم يعتبرونه أشبه بـ"وصمة عار".كما أن القضاة نصحوا تحديداً بأن حالة المتهم مستعصية على العلاج. وربما شجعهم ذلك على التفكير ملياً بالخطر المستقبلي الذي يشكله المتهم على المجتمع، وهو تفكير أعمق وأبعد مما لو فعلوا بدون تعبئة. "لقد جاءت استنتاجات الباحثين مشحونة ومثقلة بالتعبئة ضد المتهم"، كما تقول دينو.الأكثر من ذلك، اختفت محاولة لتكرار التجربة–هذه المرة باستخدام قضاة من ألمانيا– في الوصول لنفس النتائج التي توصل إليها تابيري وزملاؤه.

ويقول أبلباوم: "ينبغي أن أتوخى الحذر الشديد في استخلاص نتائج عامة من دراسة تابيري وزملاؤه، على الأقل بعدم التعميم القوي والحرفي للنتائج".ويتفق تابيري مع بعض هذه الانتقادات، لكنه لا يعتقد أنه ينبغي عدم الاعتداد بنتائج الدراسة، خصوصاً أنها بحثت في تأثير الدليل العلمي على القرارات التي يتخذها القضاة المحترفون، وليس المتطوعين الذين لا يمتلكون خبرة عملية في قاعات المحاكم.فهل حصل والدروب عملياً على حكم مخفف بسبب الأدلة الوراثية؟ يبدو أن النقاش حول ذلك صعب. فدراسة دينو لقضايا المحاكم تفيد بأن الأمر ليس كذلك، ودراسة تابيري تقول إن الدليل العلمي يمكن أن يقود إلى حكم أشد وليس أقل قسوة.

عوامل: في العادة يقدم الدليل العلمي مصحوباً بعوامل أخرى مثل الإساءات التي تعرض لها المتهمون في صغرهم

ابيض اسود

أواني واشنطن المستطرقة

يوما بعد اخر، تتصاعد وتيرة الاحداث، دون وضوح للضوء في ميناء معروف تقف فيه سفينة العملية السياسية العراقية، ومن جانب اخر، تواجه هذه السفينة هبوب رياح قوية، إقليمية ودولية، ما بين الجوكر الإيراني والاخطبوط الأميركي، والسؤال الى اين تتجه سفينة العراق وما يتوجب على الربان ان يفعل للخروج من ظلمة حالكة الى فضاء منير ؟

لذلك على الربان العراقي ان يتعامل مع نتائج تجريم بعض فصائل الحشد الشعبي بهدوء المتحالف في اتفاقية اطار استراتيجي، دون ان تؤثر على مسارات تشكيل الحكومة المنتظرة، وربما يمكن نصيحة حتى الأطراف المتضررة ، بذات النمط من الهدوء الإعلامي، لكون الاخطبوط الأمريكي يتمسك بفريسته حين تقاوم لكنه يفلتها حين يتعامل معه هكذا فعل رئيس كوريا الشمالية وهكذا فعلت ايران في اتفاقها النووي برعاية أوروبية ، وعليها اليوم ان لا توافق على اشعال نيران مقاومة الاحتلال الأميركي من ذلت الجهات التي ركبت قطار الاحتلال، وان كانت ذاكرة الناخب العراقي مثقوبة، لان أي حرب تحت أي عنوان ضد الوجود الأميركي يعني المضي بتقسيم العراق الى غير رجعة، الا اذا كان ذلك ضمن معطيات الاتفاق الضمني لقرار دمج أحزاب المعارضة العراقية المقيمة في ايران مع المؤتمر الوطني بزعامة الجلبي في مؤتمر لندن وقد حان قطف رأس العراق لصالح اجندات تلك الأحزاب لا غيرها فتغرق السفينة ما دام لها اكثر من ربان كل منهم يدير دفتها باتجاه مصالح من يمثله من القوى الإقليمية والدولية.

وفي تحليل أسباب هذه النصيحة يمكن القول ، اذا اعتمد المنهج التاريخي في استخلاص الإجابة على السؤال أعلاه، فالمسؤولية واضحة بان كل من جاء على متن القطار الأميركي وهو يحتل وطنهم تحت عنوان عريض لتغيير النظام السابق، ومن قبل ذلك الاتفاق الاستراتيجي الذي وقعه المرحوم احمد الجلبي مع الحكومة الإيرانية لفتح مكتب للمؤتمر الوطني العراقي المولل من قانون تحرير العراق وموافقة خامنئي على مشاركة الأحزاب العراقية الموالية له في اعمال مؤتمر لندن الذي صمم نموذج (مفاسد المحاصصة) برعاية ومن ثم المشاركة في مجلس الحكم وفي كلا الامرين كانت تحت الاحتلال الأميركي ؟

ومن بعد ذلك وافق المتصدرون للسلطة من أحزاب المعارضة العراقية وفيهم من يعلن ولاءه لطهران ويتعرف بنموذج ولاية الفقيه، على اتفاقيات الاطار الاستراتيجي، الأمنية والاقتصادية والسياسية بين الحكومة العراقية والولايات المتحدة بموافقة مجلس النواب، وهي اتفاقيات ملزمة لدولتين، لكن اليوم وبعد مسعى الكونغرس الأمريكي تجريم بعض فصائل الحشد الشعبي تحت عناوين " ممارسة الإرهاب " تبدو وكأنها خروج فجا عن هذا الاتفاق.

لاسيما وان هذه الفصائل بشكل مباشر او غير مباشر قاتلت كتفا لكتف مع ما يوصف بـ (المستشارين العسكريين الأمريكيين) في ساحة عمليات تحرير الأراضي العراقية المغتصبة من تنظيم داعش الإرهابي ،وقدمت شهداء وجرحى فما عدى مما بدا ؟

في متابعة للجلسات الحوارية المتلفزة، يتصاعد الخط البياني عند الكثير من المحللين العراقية بشرح تاريخ الولايات المتحدة الأسود وإنها دولة على حافة الانهيار بسبب مديونية ضخمة تصل الى عشرين ترليون دولار فضلا عن المواقف المضادة لسياسات الرئيس ترامب من قبل الاوربيين والصين وروسيا الاتحادية.

وكأن هذا الكثير الصاخب بكراهيته لواشنطن لم يقدم على متن دباباتها لاحتلال العراق واليوم امام استحقاق استراتيجي تفرضه على العالم تحت عناوين عريضة لجنون الرئيس ترامب ومنهجه الفنطازي في التعامل مع الاخرين.

وهذا نموذج واضح للوقوع في فخ الاواني الامريكية المستطرقة التي تجذب الضحية المفترض الى حيث تريد افتراسه، عندها سيكون على الحكومة تبرير نموذج استعراض يوم القدس برفع الاعلام الإيرانية من ذات هذه الفصائل التي أعلن تجريمها، فالمعركة ليست بين الحشد الشعبي كمنظومة امنية عراقية والولايات المتحدة، بل بينها وبين إيران، والخروج من تحت المعطف الإيراني الى الفضاء الوطني، المنفذ الوحيد للعملية سياسية في العراق للقفز خارج تصاعد وتنازل معدل القوة في الاواني المستطرقة بين واشنطن وطهران.

مازن صاحب
بغداد

نكران الذات

هو التضحية الكبرى ولا يتحلى بها الا من كان رمزا يمتلك كل مقومات الشجاعة والشرف فيصمت لانه يعرف قوة الصمت وفوائده وهناك اسطورة للاغريق تحكي عن مدينة عاش اهلها حياة الفوضى المترفة.. غارقين في ملذاتهم.. سابحين في اهوائهم.. حتى داهمهم وحش كاسر.. احال حياتهم جحيما.. وامنهم رعبا.. تسطع شمسهم على اشلاء قتلى.. وتغرب على نحيب ثكالى.. حتى اضحت مدينتهم كاطلال سجن واسع.. لايستطيعون مغادرته..

اجمع اهل الرأي والشورى على خطة يعيدون بها تنظيم مدينتهم وحياتهم على واقع حتمي.. فقسموا انفسهم الى فئات.. منهم من يقوم بالحراسة على حدود مدينتهم ومنهم من يسهر على امنها.. وفئة جندت لزراعة الارض واحتياجاتها.. واخرى للتجارة والتسويق.. وجماعة للعلم والتعليم.. وبالتطبيق الفعلي لهذا التخطيط المنظم.. ازدهرت المدينة اقتصادا.. واستتبت امنا.. وارتقت علما.. وعلت شأنا.. حتى ظهر في المدينة رجل اعلن انه لن يهدأ له بال.. ولن يستقر له حال.. حتى يخلص مدينته وقومه من هذا الشر الذي يهدد المدينة وذاك الخطر المترصد بهم.. ونذر حياته ثمنا وروحه قربانا..

جهز نفسه واعد عدته.. واتخذ لنفسه رفيقا اختاره ليكون ساعده في رحلته تلك..

تجمع كل اهل المدينة والقرى المحيطة لوداعه ومؤازرته بالتمنيات والاماني بالعودة والنصر.. وسار